المحاضرة السابعة: تطور نظام الحكم في تونس

لقد ظلت تونس سجالا بين الأتراك والاسبان، بداية بتوسع الأخوين بربروسة واستقرارهما في جزيرة جربة، تلك الهدية التي وهبها لهما الملك الحفصي نظير الغنائم التي كانوا يدخلونها البلد، بالإضافة إلى النسبة التي كان يتحصل عليها الملك عند دخول كل سفينة يأسرها الأخوين تونس، لكن إحساس الحفصيين بخطر الأخوين جعلهم ينيؤون بجنبهم عنهما ويتحالفوا مع الإسبان، فظلت تونس تحت سطوة الإسبان لغاية سنة 1534م حين استعادها العثمانيون منهم ونصّبوا عليها حاكما تركيا، لكن الإسبان استعادوها مجددا سنة 1535م بعد أن أوقعوا في أهلها التنكيل.

بقي الإسبان في تونس حتى سنة 1574م، عندما حررها علج علي وسنان باشا، وكان هذا التاريخ هو بداية التواجد العثماني في تونس والذي سيبقى إلى غاية انتصاب الحماية الفرنسية عليها سنة 1881م.

شهدت تونس تحت حكم العثمانيين أنظمة حكم مختلفة، امتدت على طول ثلاثة قرون كاملة.

1- نظام الباشاوات 1574-1591م.

يعتبر نظام الباشاوات أقصر أنظمة الحكم في تونس، حيث حكم البلاد خلال هاته الفترة عدّة باشاوات هم: حيدر باشا (1574-1575م)، ورجب باشا (1575-1579م) وجعفر باشا (1579-1581م) ومصطفى باشا (1581-1585م) وحسن باشا 1585-1587م، ومحمد باشا (1587-1590م)، وأخرهم جعفر باشا 1591م.

ما إن فتح سنان باشا تونس سنة 1574م، حتى أنشأ بها ديوانا يجمع مسؤولين لتسيير شؤون البلاد"[1] وكان السلطان العثماني هو من يرسل الباشا إلى تونس، حيث يقيم فيها مدة ثلاثة سنوات، وتقام الخطبة على المنابر باسم السلطان العثماني؛ وأما الجيش الإنكشاري المتواجد في المدينة فكان قوامه ثلاثة آلاف جندي؛[2] في حين يذكر حسين خوجة "أن سنان باشا قد ترك وراءه أربعة آلاف عسكر وجعل عليها المعزم حيدر باشا حاكما، وجعل رمضان باشا لاستجلاب جبايتها، وعيّن المولى حسن قاضيا عليها".[3]

كان الهدف من تعيين الباشا ثلاثة سنوات هو خوف العثمانيين من استئثار الحاكم بالسلطة لنفسه، غير أنّ مدة الثلاث سنوات لم تكن دائما ثابتة، حيث رأى بعضهم الاستمرار حتى بعد انقضاء فترة حكمه.

ينقسم الجيش التونس إلى فرق عديدة، تتكون كل فرقة من مائة داي –أي جندي–، ويرأس كل فرقة آغا، ويرى بعض المؤرخين أن الجيش الإنكشاري كانت مهمته حماية الأقلية التركية في تونس، غير أنّ قولا مثل هذا لا يستند دائما إلى الصواب، حيث لعب الجيش دورا بارزا في الذود عن البلد من الهجمات الخارجية، وفي أحيان أخرى بلغ به الأمر إلى اختيار المصلحة الداخلية على الخارجية أو حتى الولاء للسلطان نفسه.

---

[1] فاطمة الزهراء آيت بلقاسم، الحكم العثماني في الجزائر وتونس دراسة مقارنة، دورية كان التاريخية، ع37، سبتمبر 2017م، ص11.

[2] عبد الحميد الأرقش وآخرون، مرجع سابق، ص55.

[3] حسين خوجة، بشائر أهل الايمان في فتوحات آل عثمان، المطبعة الرسمية العربية، تونس، 1908، ص02–03.

مستشاروا الباشا هم خمسة:[4]

- الخازندار
- خوجة الخيل.
- الأغا.
- والبيت مالي.
- وكيل الخرج.

اهتم الباشا في الغالب بجمع الثروة، حيث كان يصل عند انتهاء عهدته إسطنبول محملا بالذهب والفضة، وهذه الغفلة جعلت جيش الإنكشارية ينمو ويزداد سطوة حتى أصبح ديوان الإنكشارية أداة تمتلك السلطة الحقيقية في يد القادة العسكريين.

وخلق هذا الصراع بدوره سطوة القبائل العربية في الداخل، فيذكر ابن أبي الضياف: "أن البلاد قد استحوذ عليها الأعراب كأولاد سعيد بالوسط والجبالية أمثال: عمدون والوسلاتية وغيرهم".[5]

وأمام الوضع العام الذي ساد البلاد أعلن أربعون دايا الثورة ضد الباشاوات سنة 1791م، حيث اتفقوا مع وكيل الخرج طبال رجب أين أبقى مخزن الأسلحة مغلقا الأمر الذي جعل أعضاء الديوان غير قادرين عن الدفاع عن أنفسهم"، وعيّنوا إبراهيم ولد علي حاكما على البلاد، واضطر الباب العالي الرضوخ إلى الوضع الجديد، حيث اعترف بحكم الدايات.[6]

2- نظام الدايات 1591-1631م.

---

[4] حسين خوجة، مصدر سابق، ص03.

[5] **ينظر**: ابن أبي الدينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تح. محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، 1967م.

[6] شوقي عطا الله، مرجع سابق، ص109.

وصل الدايات إلى الحكم بعد انقلاب سنة 1591م، أين شهد هذا العهد استقرارا سياسيا ونشاطا بحريا ملحوظا، خاصة مع وجود رياس متميّزين أمثال الرايس وارد الذي فرّ من البحرية الإنجليزية، واعتنق الإسلام.[7]

ويذكر المنتصر في نوع من الأسطورة عن انقلاب سنة 1591م قائلا: "وحدّثني من أثق به قال كان في زمان بولكباشات في زمن ابتداء الشيخ، أنّهم كفوا الشيخ وضاموه في الرعية وانتهوا معه غاية الجسارة، قال: كان يوم من الأيام قال الشيخ رضي الله عنه للفقراء، يا فقراء أقلعوا البلاط متع الزاوية المفروش واشتروا لنا رؤوس الكباش، فلما اشتروا رؤوس الكباش قال لهم أطبخوهم فطبخوهم وأمرهم بأكلهم؛ فلما كان غدات من أكل الرؤوس وقطع البلاط، اجتمع الجيش مله في القصبة وأقاموا على البولكباشيات وعطوهم الحديد[8] حتى لم يبق منهم أحد...".[9]

ويذكر بعض المؤرخين أن نظام الدايات هو عبارة عن نظام ديمقراطي عسكري، غير أنّ وصول الداي عثمان باي إلى السلطة عجل في تحول هذا النظام ليصبح نظاما أوتوقراطيا عسكريا، أين أصبح الداي ذا صلاحيات كبيرة وشبه مطلقة.[10]

كان آخر الدايات الأقوياء هو الداي أحمد خوجة ويُذكر في الأسطورة "أن أحمد خوجة كان قد دخل حماما ببلدة المذكور صناب، وجلس بين يدي الطيّاب وكان الطيّاب ذا خبرة بفن الفراسة،

---

[7] Vitkus Daniel, Three Turk Plays from Early Modern England: Selimus, a Christain Turned Turk, and the Renegado, New York: Columbia University Press, 2013, p24.

[8] الحديد: الرصاص.

[9] توفيق البرشوش، جمهورية الدايات في تونس 1591-1675م، مجموعة أيام الناس، (د.ت)، ص132. **نقلا عن:** المنتصر ابن المرابط، نور الأرماش في مناقب أبي الغيث العشاش، المكتبة الوطنية التونسية، ر.60408، و.34.

[10] عبد الحميد الأرقش وآخرون، مرجع سابق، ص57.

فقال له: ياهذا إنّك إن خرجت من بلدك هذه تتولى سلطنة، فلما خرج من الحمام سافر إلى إسطمبول فوجد بها غلائط تونس، فركب فيها وقدم إلى تونس وكان من أمره ما كان...".[11]

كان الداي عثمان تركي المولد، تولى حكم تونس خمسة عشر سنة، استغل فيها سلطته على الإنكشارية ليتخطف الحكم لنفسه[12]، حيث كان يعلم يجّدا خبايا الجيش الإنكشاري حيث ترقى في الرتب تدريجيا طيلة السنوات التي قضاها في تونس، وحكم البلاد وعمره خمسين سنة.[13]

وشهد عهد عثمان داي سيطرة تونس على الجبهة الداخلية ونشاطا بحريا في المتوسط، "خاصة مع قدوم رجال بحر أقوياء مثل وارد الإنجليزي، والذي علّم التونسيين طرق الولوج إلى المحيط الأطلسي" فكثرت الغنائم أما داخليا فقد "تمكن القائد رمضان باي من قمع القبائل المتمردة مثل: أولاد شنوف وأولاد سعيد وألزمهم بدفع الضريبة.[14]

خلف الداي عثمان على هرم السلطة الداي يوسف بين سنتي 1610-1637م، وكان أصله من الجيش الطرابلسي، حيث يذكر المنتصر ابن المرابط "أن الداي يوسف حكم عليه بالنفي من طرابلس إلى تونس"[15]

برز النشاط البحري في عهده، وفي المقابل اشتد عود البايات، حيث لعب مراد باي (1612-1631م) دورا بارزا في منصبه، وجعل منه منصبا وراثيا أين خلفه ابنه حمودة بك (1631-

---

[11] توفيق البرشوش، ص136.

[12] De Brevés, Relation de Voyages, Paris, 1628, p309.

[13] توفيق البرشوش، مرجع سابق، ص137.

[14] عبد الحميد الأرقض وآخرون، مرجع سابق، ص58.

[15] توفيق البرشوش، مرجع سابق، ص136.

1659م).[16]ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد حيث انتشر الفساد وعمت الرشاوي، ويوضح الجدول الآتي أصحاب النفوذ حسب قيمة الهدايا التي كانت تمنح لهم في سنة 1629م:

1- يوسف داي: 945 ليرة	**2-أسطا مراد: 480 ليرة**
3-الباشا: 198 ليرة	**4-كاهية الباشا: 62 ليرة**
5-آغة الديوان: 62 ليرة	**6-ضبّاط الديوان: 135 ليرة**
7-كاهية الداي: 120 ليرة	

وأمام تنامي نفوذ البايات أصبح الباب العالي أمام حتمية الإقرار بهذا النظام الجديد، فاعترف السلطان العثماني بالباي سنة 1631م، "خاصة مع تنامي نفوذ الباي في الداخل حيث لم تتبقى للداي سلطة إلا على حاضرة تونس وضواحيها".[17]

وما إن انتهى حكم الداي أحمد خوجة، حتى شهدت تونس ضبابية فيمن سيتولى السلطة بعده، وكما أشرنا سابقا فإنّه وخلال هاته الفترة كانت سلطة البايات في تعاظم حتى أصبحت سلطة الباي جاهزة لخلافة الدايات.

3-البايات المراديون 1631-1705م.

شهد الربع الأول من القرن السابع عشر ظهور بايات أقوياء تمكنوا من السيطرة على المناطق الداخلية، ورغم أن أول البايات هو رمضان باشا الذي عيّن سنة 1599م، إلاّ أن سطوتهم ونفوذهم الفعلي لم يحدث سوى في عهد الباي مراد كورسو مؤسس الأسرة المرادية"[18]، حيث قام الأخير

---

[16] إسماعيل ياغي، العالم العربي الحديث، مرجع سابق، ص138.

[17] الأرقش وآخرون، مرجع سابق، ص59.

[18] فاطمة الزهراء آيت بلقاسم، مرجع سابق، ص11.

بقمع ثورات القبائل العربية في الداخل، ونظير جهوده اعترف به السلطان العثماني ومنحه لقب الباشا سنة 1631م، ومنذ هاته اللحظة زاد نفوذ الباي وتوسع حتى لم يصبح نفوذ الداي مشتملا إلا على حاضرة تونس.[19]

خلف الباي كورسو ابنه حمودة باشا سنة 1631م، وهكذا أصبح انتقال السلطة وراثيا حيث يحكم الباي مدى الحياة، وتمكن حمودة من القضاء على الثورات الداخلية وصد هجمات فرسان القديس يوحنا على السواحل التونسية.[20]

كما قام أيضا بتطوير الجيش وإضعاف طائفة الإنكشارية حيث سمح لأفراد القبائل المخزنية بالانضمام إليه، بالإضافة إلى أنّه جلب من بلاد القبائل الجزائرية عسكر زواوة، فاستتب الأمن واستعادت البلد عافيتها.[21]

وخلفه على الحكم ابنه مراد الثاني الذي عرف بقسوته وجوره، حيث تولد في عهده صراع أبنائه على السلطة،[22] لكن ورغم هذا إلا أن البلاد عرفت في عهده وعهد سابقيه انتعاشا في الزراعة والصناعة والعمران وحتى التوسع الداخلي.[23]

وقد سعى مراد الثاني إلى اتباع سياسة سابقيه فأضعف الجيش الإنكشاري، من خلال خلع الداي مصطفى قارة كوز في 14 جويلية سنة 1669م، لكن الإنكشارية قامت بتنصيب الحاج

---

[19] الأرقش وآخرون، مرجع سابق، ص59.

[20] إسماعيل ياغي، العالم العربي الحديث، مرجع سابق، ص138.

[21] الأرقش وآخرون، مرجع سابق، ص59.

[22] إسماعيل أحمد ياغي، مرجع سابق، ص138.

[23] رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814م، منشورات الجامعة التونسية، 1980، ص49.

شعبان خوجة في نفس اليوم، غير أنّ مراد الثاني خلعه مجددا وعيّن مكانه أحمد منشتالي دايا بتاريخ الـ 12 أفريل سنة 1672م.[24]

ورغم الثورة التي قادها الإنكشارية مستغلين خروج الباي مراد الثاني، إلا أن الأخير تمكن من قمع الإنقلاب في معركة الملاسين في الـ 02 جوان سنة 1673م، ثم قام بعدها بقمع ثورة غير نظامية في طرابلس الغرب وشرع في بناء المشاريع، لكن هذا السعي اصطدم بصراع عائلي على السلطة.[25]

اشتد الصراع العائلي على الحكم بعد وفاة حمودة سنة 1676م، حيث شب خلال بين شقيقه وابنيه، فاشتعلت الحرب في جميع الأقطار التونسية خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1676-1686م، ولعب فيها أتراك الجزائر دورا بارزا، وذلك بدعم أحد الأطراف المتصارعة، وانتهى الصراع بتولي الباي محمد من الأسرة المرادية الحكم بين سنتي 1686-1696م، وهكذا استعاد المراديون حكمهم من جديد رغم التدخل الجزائري[26].

خلف الباي محمد كل من الباي رمضان 1692-1699م، ثم الباي مراد الثالث 1699-1702م، "لكن ضعف هاته العائلة وانتشار الفساد والثورات في عهدها، جعل الشريف إبراهيم يثور ضد الباي مراد الثالث، وينصب نفسه بايا على تونس سنة 1702م، حيث اعترف بسلطته العثمانيون ومنحوه لقب الباشا"[27].

---

[24] الأرقش وآخرون، مرجع سابق، ص60.

[25] محمود السيد، مرجع سابق، ص131.

[26] محمد حسن العيدوس، تاريخ العرب الحديث، مرجع سابق، ص182.

[27] نفس المرجع والصفحة.

ولم يدم حكم الشريف طويلا حيث اندلعت بينه وبين الجزائريين الحرب، فأسروه وأخذوه معهم سجينا سنة 1705م، وما إن أطلقوا سراحه حتى ثار ضده حسن بن علي، وقتله أتباعه بالقرب من غار الملح في نفس السنة.[28]

وهكذا انتهى حكم البايات المراديين ليخلفهم على الحكم البايات الحسينيون بداية من سنة 1705م.

4-الأسرة الحسينية 1705-1882م.

عيّن أعيان وعلماء تونس حسين بن علي بايا عليهم بعد أن أسر الجزائريون الباي إبراهيم الشريف، وذلك خوفا من هجوم الجيش الجزائري مجددا على الأقطار التونسية، [29]وما عاد إبراهيم الشريف من الأسر حتى هم أتباع حسين بن علي بقتله، وهكذا آلت مقاليد الحكم للعائلة الحسينية.

ترجع أصول حسين بن علي إلى جزيرة كانديا وهو ما ذهب إليه فريد بك وابن أبي الضياف، حيث جاء والده إلى تونس وارتبط بالجيش في عهد المراديين[30]، حيث أصبح الباي الحسيني يرث العرش ويحكم مدى الحياة، وقضى بذلك على الكثير من الخلافات، وأدى إلى تراجع سطوة الجيش، وهذا ما يمكن أن نلاحظه في تراتبية السلطة في العهد الحسيني التي كانت كالآتي كالآتي:[31]

---

[28] مبارك الميلي، مرجع سابق، ص184.

[29] ياسين صنديد، الأسرة الحسينية ودورها في العلاقات السياسيةالاقتصادية بين تونس وفرنسا، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة غرداية، 2012م، ص21.

[30] عبد الكريم غلّاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص351.

[31] توفيق البربوش، مرجع سابق، ص139.

–الباي –خزنة دار –كاتب الباي– خوجتا الباي – كاهية دار الباشا –الداي –صاحب الطابع – أغوات الصبايحية الأربعة– باش حانية الترك– باش جانبة أولاد عرب– أودة باشي المماليك– خوجة الديوان– القبطان– كاهية القبطان– ثمانية ريّاس.

أدى تساهل حسين بن علي مع ابنه وابن أخيه علي ومنحه لقب الباشا، إلى ثورة الأخير واستعانته بأتراك الجزائر، فتمكن من الإستيلاء على العرش، وحكم البلاد لفترة فكثر في عهده الظلم والجور.[32] ولم يتوقف أمره عند هذا الحد، أين أرسل جيشا يحاصر علي بن الحسين وأبناءه في القيروان الذي اضطر إلى ملاقاتهم، فقتلوه سنة 1740م واعترف السلطان العثماني بعلي باشا حاكما على تونس.[33]

لجأ أبناء علي بن الحسين بدورهم إلى الجزائر، وطلبوا العون من دايها، في حين حكم علي باشا تونس بصرامة وحزم ودموية، فأخذ يقتل مؤيدي عمه وابنيه، "فانتفضت في عهده الانكشارية مرّتين، وذلك في سنتي 1743م و1752م، وساءت طريقة حكمه حتى مؤيديه الذين انتظروا الفرصة للانقلاب عليه، وزادت شعبية محمد وعلي الفارين إلى الجزائر، اللذين رافقا الحملة الجزائرية على تونس، ودخلاها رفقة الجزائريين إلى تونس في 30 سبتمبر سنة 1756م".[34]

وهكذا عادت السلطة إلى أبناء الحسين محمد وعلي ومحمود، ثم آلت السلطة من بعدهم إلى حمودة ابن علي ابن الحسين، الذي كان مولده في الجزائر من أمّ علجية حيث وصل إلى الحكم خلفا لوالده بتاريخ الـ 31 ماي سنة 1782م.[35]ويصفه ابن أبي الدينار بقوله: "وحال هذا الأمير...

---

[32] عبد الكريم غلّاب، مرجع سابق، ص351.

[33] فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي...، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007م، ص30.

[34] صنديد ياسين، مرجع سابق، ص23.

[35] ابن أبي الضياف، مرجع سابق، ص11.

ثاقب في الفكر قوي الحزم، صادق العزم، ثابت الجنان... وكان غيورا على الوطن، محبا لأهله... يعفو عن الزلة ... مولعا باستكثار الجند من الترك والالتحام بهم والتودد لهم".[36]

ظلّ حمودة باشا يحكم تونس ثلاثين سنة كاملة، وذلك إلى أن وافته المنية سنة 1814م، ويصفه الورتلاني في رحلته إلى تونس قائلا: "إنّ سلاطين تونس وأمرائها وأصحاب الدولة صرفوا همهم إلى العلم... فبنوا المدارس... وأعزوا العلماء...".[37]

وقد شهد عهده استقرارا سياسيا واقتصاديا وحتى علميا، ولكنه عانى من الإضطرابات... فحارب البندقية لاعتدائها على بعض التجار التونسيين سنة 1785م، كما حارب الجزائر مرّتين، فلم ينتصر في الأولى 1806م وانتصر في الثانية سنة 1807م،[38]وثارت ضدّه الإنكشارية في تونس والحمامات والكاف سنة 1811م، فقضى عليها لكن تسامحه معهم من بعدها جعلهم يطغون في البلد، ويصبحون أصحاب الكلمة العليا فيها.[39]

ورغم الهزات التي أصابت عصر حمودة باشا إلى أنه شهد في الغالب استقرارا، حيث يعتبره المؤرخون أحد أفضل البايات الذين حكموا تونس، ويذكر ابن أبي الضياء قائلا: "ولم تزل المملكة في أيامه ينمو عمرانها، ويعظم شأنها، إلى أن فجعت بموته".[40]

---

[36] المصدر نفسه، ص12.

[37] فوزية لزغم، بايات الأسرة الحسينية بتونس، تكوينهم العلمي وأثرهم في الحركة العلمية 1705-1814م، م.03، ع02، سبتمبر 2020، مجلة العبر للدراسات، كان التاريخية، 2020، ص211.

[38] عبد الكريم غلاّب، مرجع سابق، ص35.

[39] ابن أبي الضياف، مصدر سابق، 58.

[40] فوزية لزغم، مرجع سابق، ص231، نقلا عن ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج03، ص87.

خلف الباي حمود على العرش محمود بك بن محمد 1814–1824م أين دخلت تونس مرحلة من الضعف والانحلال، شهدت تدخلا أوربيا في الشؤون الداخلية التونسية، "حيث وقّع محمود بك على إقرار بإلغاء تجارة الرقيق"، واشتعل التنافس الأوربي في عد خلفه حسين بك 1824–1835م للحصول على الامتيازات في تونس، فحصل البريطانيون على حق صيد المرجان في طبرقة وتونس.[41]

ورغم إصلاحات أحمد باي بن مصطفى (1839–1855م)، الذي أنشأ مدرسة حربية ودارا لصناعة السفن[42]، إلاّ أن الوضع الاقتصادي لم يكن في حالة من الاستقرار تساعد على تمويل الإصلاح، ولهذا راح أحمد باي يستدين من الخارج وكان ذلك أحد الأسباب التي سيستخدمها المحتلون بغرض فرض الحماية.

وفي عهد الباي محمد 1855–1859م برز بشكل جلي التنافس الفرنسي–الإيطالي في تونس، حيث سعى كل طرف إلى "ضمّ تونس لسلطته"[43] وتطورت الأمور في عهد خلفه محمد الصادق باي 1859–1882م، حيث قاد الفرنسيون في عهده حملة عسكرية أرغمت بها الباي على قبول الحماية الفرنسية على بلده، وذلك في عام 1883م،[44] وهكذا دخلت تونس تحت حكم الاحتلال الفرنسي.

---

[41] محمود السيد، مرجع سابق، 134.

[42] مفيد الزيدي، موسوعة التاريخ العربي الحديث والمعاصر، دار أسامة، عمان، 2004، ص82.

[43] إسماعيل ياغي أحمد ياغي، مرجع سابق، ص140.

[44] محمود السيد، مرجع سابق، 134.